

التحرير والتنوير

ومعنى المبين الظاهر العداوة من أبان الذي هو بمعنى بان وليس من أبان الذي همزته للتعدية بمعنى أظهر لأن الشيطان لا يظهر لنا العداوة بل يلبس لنا وسوسته في لباس النصيحة أو جلب الملائم ولذلك سماه إياها وليا فقال (ومن يتخذ الشيطان وليا من دون إياها فقد خسر خسرانا مبينا) إلا أن إياها فضحه فلم يبق مسلم تروج عليه تلبيساته حتى في حال اتباعه لخطواته فهو يعلم أنها وساوس المضرة إلا أنه تغلبه شهوته وضعف عزمته ورقة ديانته . وقوله (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء) استئناف بياني لقوله (إنه لكم عدو مبين) فيؤول إلى كونه علة للعلة إذ يسأل السامع عن ثبوت العداوة مع عدم سبق المعرفة ومع بعد ما بيننا وبينه فقليل إنما يأمركم أي لأنه لا يأمركم إلا بالسوء الخ أي يحسن لكم ما فيه مضرتكم لأن عداوته أمر خفي عرفناه من آثار أفعاله .

ولك . الشيطان من أمر صيغ أحد يسمع لا إذ والتزيين الوسوسة عن مجاز الآية في والأمر A E أن تجعل جملة (إنما يأمركم) تمثيلية بتشبيه حاله وحالهم في التسويل والوسوسة وفي تلقيهم ما يسوس لهم بحال الأمر والمأمور ويكون لفظ يأمر مستعملا في حقيقته مفيدا مع ذكر الرمز إلى أنهم لا إرادة لهم ولا يملكون أمر أنفسهم وفي هذا زيادة تشنيع لحالهم وإثارة للعداوة بين الشيطان وبينهم .

والسوء الضر من ساءه سوءا فالمصدر بفتح السين وأما السوء بضم السين فاسم للمصدر . والفحشاء اسم مشتق من فحش إذا تجاوز الحد المعروف في فعله أو قوله واختص في كلام العرب بما تجاوز حد الآداب وعظم إنكاره لأن وساوس النفس تنول إلى مضرة كشرب الخمر والقتل المفضي للثأر أو إلى سواة وعار كالزنا والكذب فالعطف هنا عطف لمتغايرين بالمفهوم والذات لا محالة بشهادة اللغة وإن كانا متحدين في الحكم الشرعي لدخول كليهما تحت وصف الحرام أو الكبيرة وأما تصادفهما معا في بعض الذنوب كالسرقة فلا التفات إليه كسائر الكليات المتصادفة .

وقوله (وأن تقولوا على إياها ما لا تعلمون) يشير إلى ما اختلقه المشركون وأهل الضلال من رسوم العبادات ونسبة أشياء لدين إياها ما أمر إياها بها . وخصه بالعطف مع أنه بعض السوء والفحشاء لاشتماله على أكبر الكبائر وهو الشرك والافتراء على إياها .

ومفعول تعلمون محذوف وهو ضمير عائد إلى (ما) وهو رابط الصلة ومعنى ما لا تعلمون : لا تعلمون أنه من عند إياها بقرينة قوله (على إياها) أي لا تعلمون أنه يرضيه ويأمر به وطريق معرفة رضا إياها وأمره هو الرجوع إلى الوحي وإلى ما يتفرع عنه من القياس وأدلة الشريعة

المستقراة من أدلتها . ولذلك قال الأصوليون : يجوز للمجتهد أن يقول فيما أداه إليه اجتهاده بطريق القياس : إنه دين الله ولا يجوز أن يقول قاله الله لأن المجتهد قد حصلت له مقدمة قطعية مستقراة من الشريعة انعقد الإجماع عليها وهي وجوب عمله بما أداه إليه اجتهاده بأن يعمل به في الفتوى والفضاء وخاصة نفسه فهو إذا أفتى به وأخبر فقد قال على الله ما يعلم أنه يرضى الله تعالى بحسب ما كلف به من الظن .

(وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون [170]) الأحسن عندي أن يكون عطفًا على قوله (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) فإن المقصود بالخطاب في ذلك هم المشركون فإنهم الذين اتتمروا لأمره بالسوء والفحشاء وخاصة بأن يقولوا على الله ما لا يعلمون والمسلمون محاشون عن مجموع ذلك .

وفي هذه الآية المعطوفة زيادة تفضيع لحال أهل الشرك فيعد أن أثبت لهم اتباعهم خطوات الشيطان فيما حرموا على أنفسهم من الطيبات أعقب ذلك بذكر إعراضهم عن يدعوهم إلى اتباع ما أنزل الله وتشبثوا بعدم مخالفتهم ما ألفوا عليه آباءهم وأعرضوا عن الدعوة إلى غير ذلك دون تأمل ولا تدبر .

(بل) إضراب إبطال أي أضربوا عن قول الرسول اتبعوا ما أنزل الله إضراب إعراض بدون حجة إلا بأنه مخالف لما ألوا عليه آباءهم .

وفي ضمير لهم النفات من الخطاب الذي في قوله (ولا تتبعوا خطوات الشيطان)